الحَجُّ

في مراحله الأربع

محمد علي باقري

الحَـجُّ

في مراحلـه الأربع

محمد علي باقري

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين

تمهـــــيد

في الكافي (٤/٤٦١) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إذا غدوت إلى عرفة فقل وأنت متوجّه إليها: « اللَّهُـمَّ إِلَيْكَ صَمَدْتُ وَ إِيَّاكَ اعْتَمَدْتُ وَوَجْهَكَ أَرَدْتُ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُبَارِكَ لِي فِي رِحْلَتِي، وَأَنْ تَجْعَلَنِي الْيَوْمَ مِمَّنْ تُبَاهِي بِهِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي... »

إن الحالة الإيمانية والرغبة التي يبلورها هذا الدعاء في نفس المؤمن، ليست مطلوبة في عرفة فقط، بل المفروض أن يعايشها المؤمن في رحلة الحج كلها، بل في جميع شئون حياته، وإن ورد في خصوص عرفة التي هي المعلم البارز في الحج . فهذا الدعاء يشير إلى ما هو المطلوب للحاج أن يستفيده من الحج

من المعروف أن للحج ثواباً عظيماً قلّما يوجد له نظير في أي عمل صالح آخر، والثواب ليس مّما يُعطى للمرء اعتباطاً، وإنما يصل إليه هو بحركته الصاعدة، والحركة الصاعدة تعني التحول من حال أدنى إلى حال أفضل، وبما أن هذا التحول يبدأ من المعرفة، معرفة الهدف ومعرفة تفاصيل سبيله، فعلى هذا لا أرى أن الحاج سوف يرتفع ويسمو بالحج وحده بل من المفروض أن تكون لديه معرفة مسبقة، فإن المعرفة ليست مما يتوقع حصوله من ممارسة مناسك الحج، بل هي مما يفترض نموه في نفس الحاج -

متدرجا - قبل قيامه بتلك المناسك، فهنالك أمكن للحج أن يساهم مساهمة عظيمة في ترسيب تلك (المعرفة) في نفسه ليزداد إيماناً وهدى

إذاً لا يتوقع أحد أن يقبل اللّه حجه فيوجب له الثواب العظيم الموعود بمجرّد أن يأتي بالحج وفق ما هو مذكور في الرسائل العملية، حتى وإن أتى بجميع ما له من آداب و مستحبات مذكورة في كتب مختلفة، بل ليكون حج المرء مقبولاً يجب أن يجد في نفسه زيادة إيمانية كما أشرت آنفا

إن تحرك المرء في الاتجاه الصحيح وتقرب إلى اللّه فقد حصّل على ثواب اللّه، فلأجل هذا ومساهمة في بلورة مغازي الحج وأهدافه أحاول أن أوضح بعض النقاط التي أجدها نافعة

XXXXXXX

روى الكافي (٥٣٨/٣) بسند معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام ما يذكر كيفية أخذ الصدقات في عهد أمير المؤمنين سلام اللّه عليه، في نهايته أن بُرَيْدا (راوي الحديث) يقول: « ثم بكى أبو عبد اللّه عليه السلام ثم قال: يا بريد واللّه ما بقيت للّه حرمة إلا انتهكت، ولا عمل بكتاب اللّه ولا سنة نبيه في هذا العالم، ولا أقيم في هذا الخلق حد منذ أن قبض الله أمير المومنين صلوات اللّه وسلامه عليه، ولا عمل بشيء من الحق إلى يوم الناس هذا »

فماذا ترى يعنى في هذه الرواية بقول: « ولا عمل بكتاب اللّه ولا سنة نبيه في هذا العالم »؟ هل يُعنى بذلك: أن الناس لم يكونوا يصلون ويصومون ويحجون؟ من الواضح أن ذلك ليس هو المقصود، بل يقصد به أن الشريعة -ككل - قد حُرّفت إلى وجهة غير إلهية، فالحج مثلا - وهو كما في الكافي (١٨/٢) مما بُني عليه الإسلام - قد حرف من مساره، ولم يعمل فيه بكتاب

اللّه وسنة نبيه

وإني أحاول - فيما يلي - أن ألقي شيئا من الضوء على التحريف الحاصل في الحج، وذلك طي المرور على مراحله الأربع:

... رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

المرحلة الأولى: الحج الإبراهيمي

النصوص الواردة لا أراها تكفي لإعطاء صورة واضحة عن حج إبراهيم عليه السلام[١]، فللحصول على ذلك يحتاج المرء إلى أن يتابع إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم خاصة متابعة دقيقة تستوعب جميع مواقفه وأدواره كـ(مِلّة) الأمر الذي يؤكد عليه القرآن المبين ويأمر محمدا صلى اللّه عليه وآله باتباعه

غير أن الحديث الشامل عن جميع أبعاد (مِلّةِ) إبراهيم عليه السلام غير متيسر لي فأحاول اقتطاع (الحج) منها رغم أن ذلك هو الآخر غير ممكن بصورة كاملة، وهذا أراه واضحاً لمن تدبر القرآن الكريم، بل يكفي لمعرفة هذا الأمر تدبر بعض آيات القرآن، كالآيات التالية (البقرة: ١٢٧- ١٣٢) مثلاً: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

---

[١] تلاحظ روايات الكافي في ج٤ ص٢٠١ إلى ص٢١٢

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ.....

علي أيّ حال أبدأ الحديث عن حج إبراهيم عليه السلام بالحديث عن بنائه للبيت[٢]

لا يبعد أن يكون المقصود بـ(مكان البيت) في قول اللّه تعالى (الحج ٢٦): (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) موقعه المعنوي الذي قد يصحّ التعبير عنه (بمكانته) كما رجح ذلك بعض المفسرين في قول اللّه تعالى (مريم: ٥٧): (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)[٣]، وفي قول يوسف (يوسف: ٧٧): (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا)[٤]

فلا حاجة إلى إضمار جملة (وأمَرَه) مثلاً كما في (التبيان)، كما لا حاجة للفرار عن ذلك المحذور إلى ما تكلفه (الميزان) حيث رأى أن اللّه جعل مكان البيت مرجعا لعبادة إبراهيم عليه السلام

بل معناه -كما يبدو لي -:

مكانة البيت هي المرجع في البناء

إن اللّه عزّ وجلّ جعل موقع البيت ومنزلته مرجعاً يرجع إليه إبراهيم عليه السلام في بنائه له، هذا إذا كانت هنالك ضرورة لغوية لتحديد معنى (التبوئة)

---

[٢] هناك خلاف في كون إبراهيم عليه السلام هو الذي بدأ بناء البيت، أم أن الذي كان قد بناه هو آدم عليه السلام ...، فإبراهيم عليه السلام قد أعاد بناءه، ويدل على هذا ما في نهج البلاغة (الخطبة ١٩٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام

[٣] ينظر ـ مثلا ـ تفسير الأمثل

[٤] ينظر ـ مثلا ـ تفسير الرازي

(بالإرجاع) كما في بعض التفاسير، وأرى أن ذلك من لزوم ما لا يلزم، فقد يكون معناه شيئا مناسبا آخر كـ(التهيئة) أو (التمكين) مثلاً كما في تاج العروس حيث ذكرهما من معاني اللفظة، وعلى فرض أن يكون (التبوئة) بمعنى (الإرجاع) كما هو المشهور، فإني أفهم من الآية الكريمة معنى آخر، إليك توضيحه:

من المعروف أن كل من يبني بيتا، إنما يبنيه وفق مخطط كان قد خططه هو في ذهنه (أو خططه له شخص آخر)، والمخطط (الخارطة) إنما يضعه الباني للبيت وفق ما يستهدفه هو من عملية البناء، فمثلاً: إذا كان ثرياً وأراد أن يظهر للناس ثراءه خطط ليكون البيت فخما ملفتا للأنظار إلى ثرائه، كما فعل (قارون) في خروجه على قومه

و - مثلاً - إن كان فنّاناً يريد أن يلفت أنظار الناس إلى فنّه، خطط ليكون ما يبنيه كذلك

ثم قد يطلب فيه الراحة أيضا كهدف آخر، مرجّحا إياها على أهدافه الأخرى، أو بالعكس (وسعي الناس شتى)، فهو يضع المخطط ليحقق ذلك الهدف، وبالأحرى تلك الأهداف مع ملاحظة نِسَبِها التي يختلف الناس فيها .....

ومن جهة أخرى فإن الغاية التي يوضع المخطط للوصول إليها كلما كانت أهم في نظر الشخص كان استذكاره للمخطط الموصل إليها و(رجوعه) إليه أكثر وأشدّ، وأرى أن هذا لا يحتاج إلى إثبات بل حتى إلى توضيح أكثر

فبناءً على ما ذكر، وبناءً على أن اللّه تعالى يقول (الجن: ١٨): (وَأَنَّ

الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ...)، وفي مورد الحج يقول (البقرة: ١٩٦): (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)، فمن الطبيعي إذن أن يأمر اللّه عز وجل إبراهيم عليه السلام بأن يبني البيت للّه وحده

ولا يمكن لأحد أن يبني بناء كمسجد للّه وحده إلا أن يكون هو قد أسلم وجهه للّه وحده كما كان قد فعل إبراهيم عليه السلام إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[٥]، فإنه (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ...[٦])، بل (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ . . .[٧]). ولا يبرئ المرء من الشرك مجرد إخلاصه القلبي، بل هو - بالاضافة إليه، وقبل ذلك - يجب أن يعرف الشرك ومنافذ الطاغوت لكي يجتنبه، وإلا فقد يكون - بجهله - من الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ففي الكافي (٣٩٧/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه عز وجل (يوسف: ١٠٦): (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) قال: يطيع الشيطان من حيث لا يعلم فيشرك

أجل إن من يبني مسجداً للّه تعالى يجب أن يكون بالإضافة إلى إيمانه باللّه واليوم الآخر عالما بهدف المسجد ورسالته التي هي أن يدعو الناسُ

---

[٥] سورة البقرة: ١٣١

[٦] سورة التوبة: ١٧

[٧] سورة التوبة: ١٨

فيه اللّهَ مخلصين له الدين[٨]، وألا يدعوا مع اللّه أحدا[٩]

وإن كان عالما بذلك، وكان مخلصاً استطاع أن يخطط لبناء المسجد تخطيطاً يراعي فيه ذلك الهدف بدقة، مستذكراً إياه باستمرار

زخرفة المساجد

وبهذه المناسبة أود أن أذكر أني أرى من الواضح الذي لا يتطلب فهمه كثير جهد أن أي أثر إنساني بارز في المسجد من الزخارف وغيرها - مهما كان ضئيلا - لا يكون إلا دعوة للناس إلى ذلك الأثر ولفتا لنظرهم إليه بدرجة أو أخرى، فهو بذلك ينافي أن تكون الدعوة خالصة للّه وحده، إذ من الواضح قول اللّه تعالى (الأحزاب: ٤): (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

وحتى لو كان الأثر الملفت منشطا للمصلي ودافعا له إلى الإكثار من الصلاة والدعاء، فمن الواضح أن نشاطه ذلك لا يكون إذن بدافعٍ إيماني خالص، بل بسبب آخر وحوافز أخرى ...

ولعل هذا هو السبب الرئيس - أو بعض السبب على الأقل - في امتناع الرسول صلى اللّه عليه وآله عن تسقيف مسجده وإبقائه عريشاً كعريش موسى كما في الرواية المعتبرة، بل المتفق على صحتها[١٠]

---

[٨] قال اللّه عز وجل (الأعراف: ٢٩): (... وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ....)

[٩] قال تعالى (الجن: ١٨): (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا).

[١٠] الوسائل (٤٨٧/٣) عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بنى مسجده بالسُّمَيط، ثم إن المسلمين كثروا فقالوا: يا رسول اللّه

ولعل -كذلك- هو السبب أو بعضه في كون المساجد التي بنتها الحاج في طريق مكة (أفضل المساجد) كما روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام[١١]، والمساجد التي يبنيها الحاج وهم في طريقهم إلى مكة لا تتجاوز عادة كونها (مساجد) فقط من دون أي شيء آخر، كما تشعر به ما رواه في (الكافي: ٣٦٨/٣) بسند معتبر عن أبي عبيدة الحذاء أنه قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: « من بنى مسجدا بنى اللّه له بيتا في الجنة. قال أبو عبيدة: فمر بي أبو عبد اللّه عليه السلام في طريق مكة وقد سويت بأحجار مسجدا، فقلت له: جعلت فداك نرجو أن يكون هذا من ذلك؟ فقال: نعم »

وعلى أي حال فإن من المفهوم الواضح -كما أرى- أن من أصول المخطط الذي وضعه اللّه عز وجل لبناء (البيت) أن لا يشرك إبراهيم باللّه،

لو أمرت بالمسجد فزيد فيه . فقال: نعم، فزيد فيه وبناه بالسعيدة، ثم إن المسلمين كثروا فقالوا: يا رسول اللّه لو أمرت بالمسجد فزيد فيه، فقال: نعم، فأمر به فزيد فيه وبني جداره بالأنثى والذكر . ثم اشتد عليهم الحر فقالوا: يا رسول اللّه لو أمرت بالمسجد فظلل فقال: نعم، فأمر به فأقيمت فيه سواري من جذوع النخل، ثم طرحت عليه العوارض والخصف والأذخر، فعاشوا فيه حتى أصابتهم الأمطار، فجعل المسجد يكف عليهم، فقالوا: يا رسول اللّه لو أمرت بالمسجد فطُيّن، فقال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: لا، عريش كعريش موسى عليه السلام

فلم يزل كذلك حتى قبض صلى اللّه عليه وآله، وكان جداره قبل أن يظلل قامة، وكان إذا كان الفيء ذراعا -وهو قدر مربض عنز- صلى الظهر، فإذا كان ضعف ذلك صلى العصر

وقال: والسميط: لبنة لبنة، والسعيدة: لبنة ونصف، والذكر والأنثى: لبنتان مختلفتان

أقول: في تاج العروس: (السميط): الآجر القائم بعضه فوق بعض

[١١] في (وسائل الشيعة: ٤٨٦/٣) عن هاشم الحلال أنه قال: « دخلت أنا وأبو الصباح على أبي عبد اللّه عليه السلام، فقال له أبوالصباح: ما تقول في هذه المساجد التي بنتها الحاج في طريق مكة؟ فقال: بخ، بخ، تيك أفضل المساجد ... »

وهنالك استطاع أن يطهر البيت للطائفين والقائمين والركع السجود فلا يجدوا فيه أية دعوة أو إيحاء غير إلهي

أجل، ليس المطلوب في قول اللّه تعالى (الحج: ٢٦): (... وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) التطهير من نجاسة موجودة، فإن البيت لم يكن نجسا وقت بنائه، كما وأن التطهير الفقهي لا يناسب عبارة (وعهدنا) في قول اللّه تعالى (البقرة: ١٢٥): (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)، بل المقصود هو التطهير من الرجس الحقيقي أي (الشرك) بمعناه الواسع الذي قلما يخلو عن لوثته - بل الدعوة إليه - عمل من أعمال الإنسان وإن كان بزعمه يعملها للّه ويعتبرها في سبيله، فإن للطاغوت الخفي تدخلات دائمة في أعمال العبد، بل حتى في دعوته إلى اللّه، اللّهم إلا من عصمه اللّه عز وجل كإبراهيم عليه السلام، ففي (الوسائل)[١٢] عن النبي صلى اللّه عليه وآله أنه قال: « إن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء »

الخلاصة: أن اللّه عز وجل حدد لإبراهيم موقع البيت، وكان أول حدوده أن هو - نفسه - في بنائه للبيت لا يشرك باللّه شيئا، إذ أرى واضحاً أن المطلوب لم يكن ترك ذلك الشرك الذي كان هو قد أعلن براءته عنه في وقت مبكر بقوله (الأنعام: ٧٩): (إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين)، وأعتقد أنه لم يكن بحاجة إلى التذكير في تبريه عن ذلك الشرك، بل الذي كان يتطلب التنبيه والتذكير هو أن لا

---

[١٢] ج١١ ص٤٩٨ . وفي (البحار: ٣٧١/٧٨، ط طهران) - نقلا عن تحف العقول - عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قريب منه

يفعل شيئا في بناء البيت يذكر مع اللّه ويشرك ويشرك به فيكون قسط من الاهتمام له، بدل أن يكون كل همه توجيه وجوه العاكفين و.... وذكرهم للّه وحده، وأن يقيموا وجوههم للدين حنيفا ولا يكونوا مشركين

كذلك بنى إبراهيم عليه السلام البيت لئلا يدعى مع اللّه أحد، وليأتيه الناس ملبين له وحده لا شريك له، فلا يجدوا فيه غير ما يقرب الناس إلى اللّه ويذكرهم به، إذ أن إبراهيم كان أمة حنيفا وما كان من المشركين، وقد اتخذه اللّه خليلاً، وجعله للناس إماماً ثم أمره اللّه فقال (الحج ٢٧- ٣١): (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ..... ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ .... فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ...)

لبيك عن بجيلة، الفخمة الرجيلة

المرحلة الثانية: حج المشركين

بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبالتدريج، دعا الشيطان قريشا وغيرهم من العرب إلى الشرك وأوحاه إليهم وزيّنه في نفوسهم، فاستجابوا له وغاصوه في شتى نواحي حياتهم، وكان من الطبيعي أن يشمل الشرك فيما يشمل أعمالهم العبادية أيضاً، إذ لا يمكن فصلها عن شؤون الحياة المختلفة، فإن اللّه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه ...، وكان (الحج) من أبرز عباداتهم فسرّب الشيطان إليه الشرك، بعد أن أبقى على كثير من مظاهره الإبراهيمية لكنه حرّفها عن مواضعها لتشير إلى وجه غير اللّه بعد أن كانت آيات بينات ومؤشرات واضحات إلى وجه اللّه وحده والصراط المستقيم

ولتوضيح الأمر - وإن كنت أراه غنياً عن التوضيح - أذكر هنا ما رواه ابن هشام[١٣] وغيره أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله دخل البيت يوم الفتح، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها!!، فقال: قاتلهم اللّه جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام!؟، مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ثم أمر بتلك الصور كلها فطُمِست

---

[١٣] السيرة ج٤ ص ٥٥، ولاحظ ما يشبهه في البخاري (الباب ٥٤ من الحج) ج٣ ص٤٦٧، ومغازي الواقدي ص٨٣٤ (ط بيروت، الأعلمي)، وأخبار مكة للأزرقي ج١ ص ١٦٦

الشرك الملفوظ وغير الملفوظ

لم يكن شرك الجاهليين في الحج يتجلى فقط في ما يُنقل[١٤] من تلبية قريش أنهم كانوا يقولون: (**لبّيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك**)، فإن من التلبيات المنقولة ما لا يحتوي على أي شرك صريح كتلبية كنانة: (**لبّيك اللّهم لبيك، اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف**)[١٥]

وكتلبية بعضهم[١٦]: (**لبّيك أللّهم لبّيك، لبّيك حجًا حقًا تعبّدًا ورقًا**)

وكذلك لم يكن الشرك فقط ما ينقل اليعقوبي أيضاً من أنهم إذا أرادوا الحج وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوا عنده ثم تلبّوا حتى تقدّموا مكة

أجل لم يكن شركهم فقط هذا وذاك من ألفاظ وأفعال صريحة يفهمها عامة الناس بل كانت في حجهم مظاهر أخرى للشرك لا تظهر إلا للعارف بالحج وتشريعاته المختلفة التي تستهدف تحطيم أي أمر ينافي عبادة اللّه وحده

أجل، إذا نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية لم يقتصر الشرك في تلبية قريش وأمثالهم بل وجدنا الشرك في كثير من التلبيات المنقولة عن المشركين، كتلبية بني أسد[١٧]: (**لبّيك أللّهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد، أهل التواني**

---

[١٤] المفصل في تاريخ العرب ج٦ ص٣٧٥

[١٥] اليعقوبي ج١ ص ٢٥٥

[١٦] المُحَبَّر ص ٣١٢، واليعقوبي ج١ ص ٢٥٥

[١٧] اليعقوبي ج١ ص ٢٥٥

والوفاء والجَلَد إليك)[١٨]

وكتلبية جرهم[١٩] **(لبيك إن جُرْهُمًا عبادك، الناس طُرْفٌ وهم تلادك، ونحن أولى منهم بولائك)**[٢٠]

و كتلبية بعضهم[٢١]: **(لبيك اللّهم لبيك، إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح)**[٢٢]

وكتلبية جذام[٢٣]: **(لبيك عن جذام ذي النهى والأحلام)**

أو تلبية بجيلة[٢٤]: **(لبيك عن بجيلة، الفخمة الرجيلة، ونعمت القبيلة، جاءتك بالوسيلة، تؤمل الفضيلة)**[٢٥]

---

[١٨] **التواني**، من الأناة: التمهل والرفق. **الجلَد**: الصلابة

[١٩] **المُحَبَّر** ـ ط دار الآفاق الحديثة، بيروت ـ ص٣١٤

[٢٠] **جُرْهُم** الذين تزوّج فيهم إسماعيل عليه السلام، وكانوا سكان مكة، وبادوا. **الطُرْفُ** جمع **طريف**: الغريب. **تلاد** الرجل: أهله وخاصته

[٢١] المُحَبَّر ص٣١٥

[٢٢] **القوم اللُّقاح**: الذين لايدينون للملوك أو لم يصبهم في الجاهلية سِباء

[٢٣] اليعقوبي ج١ ص ٢٥٦ . و(**جُذام**) حي من اليمن

[٢٤] **(بجيلة)** قبيلة عربية كان موضعها بتبالة بين مكة واليمن، وكان لها صنم يعرف بذي الخَلَصة ...

[٢٥] **الرجيل** من الناس: الصلب، القوي في المشي . ولاحظ النص في المفصل في تاريخ العرب ج ٦ ص ٣٧٨

أو (**لبيك مع كل قبيل لبيك، همْدان أبناء الملوك تدعوك**)[٢٦]

هذه نبذة مما نقل المؤرخون من التلبيات التي كانت تنادي في الحج بالعصبية والتفاخر، والتعصب مما يخرج الإنسان عن الإيمان كما في (الكافي: ٣٠٨/٢) عن النبي صلى اللّه عليه وآله

مظاهر وطقوس

كانت المناسك التي قد أراها اللّه إبراهيم وإسماعيل تبدأ بالإحرام، حيث نزع الزينة وإهمال المظهر الأمر الذي يعني - فيما يعني - أن الناسك بذلك يقول بعمله: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، فلا أهتم بالناس في حياتي ومظاهرها وأساليبها، وها أنا قد تركت مراءاتهم في ملبسي ومظهري، بل في أحاديثي ومناقشاتي (فلا أجادل) لأزين نفسي وأعمالي وموقعي

وأيضاً يوحي الحاج إلى غيره فيقول: ولا أدعوكم إلى أن توجهوا بعض وجوهكم إليَّ بأن أبهركم بمظهري وأُوجِدَ في نفوسكم الشعور باني ذو حظ عظيم إذ أملك ما لا تملكون من زخرف الحياة وزبرجها

فالحاج بذلك قد استعاذ باللّه من إيحاءات الناس ومن سحرهم، وقد أعاذ الناس كذلك أن يكّبروه مع اللّه

كذلك كان (مكان) الإحرام في الحج حيث شرعه اللّه عز وجل لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، غير أن الناس بعدهما أشركوا فحرفوه ووجهوه

---

[٢٦] المفصل ج٦ ص ٣٧٨

اتجاه الشرك الذي سلكوه

إنهم أبقوا على الإحرام، كما حافظوا على كثير من مظاهر الحج وطقوسه وفق مناسك إبراهيم عليه السلام لكنهم -كما قلت - جعلوه ذا وجهة شركية، كما تصرفوا في بعضها وأقحموا فيها ما يتناسب مع دينهم الذي ارتضوه لأنفسهم

فقبيلة (عكّ) -كمثال - إذا بلغوا مكة كانوا يبعثون غلامين أسودين أمامهم يسيران على جمل، مملوكين قد جُرّدا، عريانان فلا يزيدان على أن يقولا: *(نحن غرابا عكّ)* . وإذا نادى الغلامان بذلك، صاح مَنْ خلفهما من عكّ: *(عكّ إليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نحجّ الثانية، على الشداد الناجية)*[٢٧]

فلـ(عَكّ) كانت تلبيتها الخاصة وأعلامها وسماتها وطريقتها المميزة في الحج، وبصدق كانوا يقولون ما يقولون، فهم كانوا يؤكدون على كونهم (عكًّا) أولاً، ثم عبيداللّه ثانيًا، ولكن لا مجرد عبيد للّه كالناس -كل الناس -، بل عبيده اليمانية ...

ولا أظن أن جميع القبائل - آنذاك -كانت (تلبي) صراحة (بِكِبَرِ) أنفسهم، كما نقلته عن (عكّ)، وقبْلَه عن قبائل أخرى، غير أن تكبير غير اللّه كان أبرز مظهر من مظاهر الشرك الجاهلي سواء في الحج أو في غير الحج، فمن نفس المنطلق كانت قريش وحلفاؤهم ... تفيض من أدنى الحل (النمرة) وتأبى الخروج إلى عرفة الخارجة من الحرم، لأن الخروج من الحرم لا يناسبهم

---

[٢٧] المُحَبَّر لمحمد بن حبيب ص٣١٣ ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، و(**عك**) قبيلة يمنية

كفئة خاصة: (الحُمْس)[٢٨]، وأما الناس العاديون فكانوا يخرجون إلى عرفة، ومن الطبيعي أن كثيرين منهم كانوا يتمنون ميزة قريش، لأن هذه الميزة كأية ميزة اجتماعية أخرى تعكس مباهاة المميَّزين، وحسرة الفاقدين بدرجة وأخرى تبعًا لأهمية الميزة اجتماعياً

من الطبيعي أن لم تكن تلك الميزات خاصة بالحج، فإن الحج - كما أشرت - لا يمكن فصله عن عامة حالات الناس الذين يحجون، فالرغبات الناتجة عن مستوى معرفة الحاج وإيمانه هي التي تتجسّد في الحج، والمعروف أن هؤلاء كانوا راغبين في الميزات الاجتماعية، مؤمنين بها، إلى درجة التضحية بالنفس في سبيلها، فمن الطبيعي أن تلك الرغبة كانت تسايرهم في الحج، بل تقودهم أيضا، ولكن ضمن طقوس لم تكن تتعدى الملابس وبعض التصرفات الظاهرية، و(تأجيل) التفاخر إلى اليوم العاشر حيث ينطلقون فيه إلى ميزاتهم من ذكر آبائهم وأحسابهم، ولكن بلا تقاتل حيث كانوا يحرمونه في الشهر الحرام

---

[٢٨] الحُمْس: قريش ومن ولدته قريش و...، أو هم سكان الحرم، وكانوا لا يخرجون في أيام الموسم إلى عرفات، إنما يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل اللّه ولانخرج من الحرم ...، وإنما سُمّوا (الحُمْس) لتحمّسهم في دينهم، أي تشدّدهم فيه

المرحلة الثالثة

الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ[٢٩]

بُعِثَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله على شريعة إبراهيم عليه السلام ومتبعا لملته، فكان - فيما كان - أن تحرر الحج وعاد حجا إبراهيمياً وأصبح إبراهيم عليه السلام إماماً ومقامُه مصلى، بعد أن كان فقط أباهم الذي به يفتخرون على الناس، ويستقسم لهم الأزلام، فهو بهذا وذاك كان قد تحوّل إلى مؤيد لهم في دينهم ومُسنِدٍ في شركهم، بعد أن كان إماما للناس على الصراط المستقيم!!

كما أشرت، كان المشركون يرجعون إلى التفاخر بميزاتهم الاجتماعية بمجرد الانتهاء من الطقوس، إذ أن ذلك كان هو الحالة الطبيعية لهم، وإنما أوقفت قليلاً لممارستهم مراسيم خاصة، فيبدأون بذكر آبائهم الذين كانوا المنفذ الرئيس للميزات الاجتماعية آنذاك، فمن الطبيعي أن لا يقتصر الجدال بذكر الآباء فقط، بل ذكر أنفسهم وذكر أية ميزة اجتماعية أخرى

وبما أن الإسلام ألغى كل ميزة اجتماعية، وجعل التقوى فقط سببا للكرامة، فكان من الطبيعي أن يرى نجاح الحج في رجوع الحاج إلى ذكر اللّه بدلا عن التباهي بذكر الميزات الدنيوية، فيعلن ذلك بقول اللّه تعالى (البقرة: ٢٠٠): (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا)

---

[٢٩] مقطع من خطبة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في مسجد (الخيف) بمنى، يُنظر الكافي ج١ ص٤٠٣

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ

كل فئة من المشركين كانت تحاول أن تلفت أنظار الناس إلى نفسها ليكون لها العلو في الأرض فقضى الإسلام على تلك الظواهر، فأصبح التنافس في التقوى، وأصبحت الإمامة في ذلك المجتمع لرسول اللّه (ص) وحده، باعتباره المَعْلَمَ المُجسِّد لعبادة اللّه عز وجل الأمر الذي يستهدف الإسلام ترويجه وترسيخه وإزالة العقبات عن طريقه

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

حينما نلاحظ سلوك رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله باهتمام ودقّة وفهم، نجده تجسيداً واضحا لعبودية اللّه في جميع جوانب حياته الشريفة: في صلاته ونسكه ومحياه ومماته، فنراه يجلس جلسة العبد ويأكل أكل العبد[٣٠] ويتواضع لربه في كل شيء، فلا نجد فيه (ص) إلا ما يذكر باللّه وحده وطريقا إليه

ففي عرفة حيث لم يعُد شيء بارز من الأفراد والفئات والمظاهر و ... يلفت النظر، غير رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، فكان طبيعيا ما نقرؤه في (وسائل الشيعة: ١٣/١٠) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وقف بعرفات في ميسرة الجبل، فلما وقف جعل الناس يتدرون أخفاف ناقته فيقفون إلى جانبه... »

كما أن المتوقع أيضا من فعل النبي (ص) ما نقرؤه في نفس الخبر حيث

---

[٣٠] في الكافي (٢٧١/٦) عن أبي عبد اللّه عليه السلام، قال: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله يأكل أكل العبد، ويجلس جلسة العبد، ويعلم أنه عبد

وفي نفس الباب روايات أخرى أيضا

يقول: « **فنحّاها، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أيّها الناس إنّه ليس موضع أخفاف ناقتي الموقف ولكن هذا كلّه موقف، وأشار بيده إلى الموقف، وقال: هذا كلّه موقف، وفعل مثل ذلك في المزدلفة** » [٣١]

أجل، كان للمسلمين بشكل عام أسوة في رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، بل وللمنافقين أيضا حيث كانوا يعيشون في مجتمع إمامته للمؤمنين، فأصبح رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله هو المحور والإمام وهو كان بدوره يضع من نفسه ليتخذه الناس سبيلاً يسلكونه إلى اللّه وحده، ولم يكن يعجبه التفاف الناس حوله رغبةً في الرئاسة والدنيا، كما هو ديدن الناس غير المتقين

كذلك كان عهد النبي الأطيب الأطهر: أصبح الحج كسرا للأصنام وإزالة للعقبات التي تعوق حركة المؤمن إلى اللّه وحده، فأصبح المؤمن عزيزا لا يستذله شيء (لم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر اللّه بما تسمع أذناه ولم يحزن صدره بما أعطي غيره) كما في حديث الكافي (١٦/٢)، وكان ولاية رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ورعايته تعوض المؤمن من أي ضعف

---

[٣١] يشبه هذا ما في الوسائل (١٩٢/٥) ـ نقلا عن ابن بابويه، بسند معتبر، ـ : « أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله كان إذا صلّى العشاء الآخرة انصرف إلى منزله، ثم يخرج من آخر الليل إلى المسجد فيقوم فيصلّي، فخرج في أوّل ليلة من شهر رمضان ليصلّي كما كان يصلّي، فاصطف الناس خلفه فهرب منهم إلى بيته وتركهم، ففعلوا ذلك ثلاث ليالي، فقام في اليوم الرابع على منبره فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن الصلاة بالليل في شهر رمضان من النافلة في جماعة بدعة ...، ألا فلا تجمعوا ليلا في شهر رمضان لصلاة الليل، ....، ألا وإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة سبيلها إلى النار، ثم هو نزل وهو يقول: قليل في سنّة خير من كثير في بدعة »

....وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا[٣٢]

أرى أن الناس بشكل عام يملكون - فطرياً - بذورا من الصلاح في كوامن نفوسهم، بيد أن فيهم - وهم الأكثرية - من يضعف عن تنمية تلك البذور لتصبح شجرة مثمرة تظلل حياته كلها بتشعباتها المختلفة، فهو بحاجة إلى إسناد ودعم، وإن كان درجة ذلك الضعف وتلك الحاجة تختلف باختلاف الأشخاص الناتج عن اختلافهم في الوراثة والتربية. أجل إن الناسَ بشكل عام يستطيعون أن يكونوا كالفقير الذي ينقل الكافي أنه رفض نصف مال الغني[٣٣]، شريطة أن يجدوا سنداً واضحا قوياً كرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وولايته

---

[٣٢] سورة النساء: ٢٨

[٣٣] في الكافي (٢/٢٦٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: جاء رجل موسر إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، نقي الثوب، فجلس إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه، فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه: أخفت أن يمسك من فقره شيء؟! قال: لا، قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟! قال: لا، قال: فخفت أن يوسخ ثيابك؟! قال: لا، قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول اللّه إن لي قرينا يزيّن لي كل قبيح ويقبّح لي كل حسن، وقد جعلت له نصف مالي. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه للمعسر: أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: ولِمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك

المرحلة الرابعة...

وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ... [٣٤]

وأما بعد وفاة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله فقد بدأت الأمور بالتغير في اتجاه بروز محاور جديدة، لا كمعالم في طريق حرية المؤمن وحركته إلى اللّه وحده كما كان الرسول صلى اللّه عليه وآله كذلك، بل محاور مضادة لذلك الاتجاه

ففي رواية معتبرة[٣٥] أن الحسن عليه السلام حجّ عشرين حجة ماشياً وكانت تُساق معه محامله ورحاله. أليس من الطبيعي أن يتساءل المرء هنا فيقول: لم كان الحسن عليه السلام يفعل ذلك؟

الجواب الصحيح - في نظري - هو أن الإمام الحسن عاش في ظرف كانت قد برزت فيه إمامات منحرفة متعاضدة، كإمامة المال والجاه مثلاً،

---

[٣٤] في كتاب البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٤٨ (قول اللّه تعالى: واذكر في الكتاب مريم) -: عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: ... ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال، فأقول: أصحابي! فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتَهم، فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٣٥] الوسائل ج٨ ص٨٥

هذا وقارِن بين ما فعله الحسن عليه السلام وبين ما في مسند أحمد (ج ١ ص١٠٠) من قصة فيها ما يدلّ على أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يُوجِر دابّته الخبط بيده وهو حاجّ ...، والخَبَط (هنا): ورق الشجر يجفف ويطحن ويخلط بدقيق أوغيره، فيخلط بالماء ويُصَبّ في حلق الدابّة .....

فكان يُكرم المرء أو يُهان بوحي من تلك الإمامات الظالمة، فالذي ملك المال أجلّه الناس واحترموا تصرفاته التي لو قام بها الفقير لاحتقروها لاعتبارهم إياها من ثمار شجرة الفقر التي كانت يستخبثونها، حتى وإن وجدوها في امرئ كالحسن عليه السلام الذي - على الأقل - كان سبط الرسول صلى اللّه عليه وآله، وفي عليا قريش، والمعروف أن للنسب كان حينئذ قيمة اجتماعية كبيرة

لتوضيح الواقع المؤلم آنذاك (والمستمر إلى الآن) إليك الرواية المعتبرة التالية عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « إن أناساً بالمدينة قالوا: ليس للحسن مال، فبعث الحسن عليه السلام إلى رجل بالمدينة فاستقرض منه ألف درهم وأرسل بها إلى المصّدق، وقال: هذه صدقة مالنا فقالوا ما بعث الحسن بهذه من تلقاء نفسه إلا وله مال » [٣٦]

باختصار كان مشي الحسن (ع) تواضعا للّه ورغبة في الآخرة، ولكن الناس كانوا - بشكل عام - يرون ذلك عجزاً لا يفعله إلا الفقراء الذين كانت العيون والنفوس تزدريهم أيما ازدراء

فالحسن عليه السلام كان بسلوكه ذلك يقول للناس: إن التواضع ليس ذلاً ما دام للّه، وإن احتمال المشاق لا يعني عجزاً ما دام في سبيل اللّه وطلبًا للآخرة

ويلاحظ أيضا ما في (الكافي: ٤/٢٨٠) أن عليا عليه السلام كان لينقطع ركابه في طريق مكة فيشده بخوصة ليهون الحج على نفسه

[٣٦] الكافي (٦/٤٤٠)، وفي المصدر روايات أخرى مؤيدة فلاحظها

حج (عاتكة) بنت يزيد

ولتوضيح الصورة أذكر قصة، وإن كنت أراها مبالغا في بعض تفاصيلها، وهي كما في الأغاني (ج١٠ ص ٦٠): « *استأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك (زوجها) في الحج فأذِن لها وقال لها: ارفعي حوائجك واستظهري (أي: استكثري) فإن عائشة بنت طلحة تحجّ*[٣٧]*، ففعلت وتهيأت وتجمّلت، فجاءت في هيئة جهدت فيها*

فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها فقالت: أرى أن هذه عائشة بنت طلحة فسألت عنها، فقالوا: هذه خازنتها، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك فقالوا عائشة عائشة، فضغطهم فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمئة راحلة عليها القباب والهوادج، فقالت عاتكة: ما عند اللّه خير وأبقى »

سواء أصحّت هذه القصة أم لا فليس خافيا أن المباهاة العملية بالمال، والتنافس في التنعّم، والجدال السلوكي للاستعلاء ... أصبحت أمورا شائعة في الحج، بل اعتبرت من معالم الحج (المبرور!)، أي كلما كان الحج أكثر بذخا واستعلاء، كان الحاجّ أعظم بروزا وشموخا في نفوس (المؤمنين!) ...[٣٨]، فكان الحج الباذخ ـ بهذا وذاك ـ عُلُوًا في الدنيا و(في الآخرة!)

---

[٣٧] يُذكر أن عائشة هذه كانت معروفة بالبذخ في الصرف حتى في الوسط المترف آنذاك، وكان يساعدها على ذلك ثراء أبيها طلحة بن عبيد اللّه الواسع، وأيضا أنوثتها الصارخة التي كانت تدعو المترفين إلى أن يغدقوا عليها المال، كما ينقل عن مصعب ابن الزبير أنه أمهرها خمسمئة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك فأنّبه عليه أخوه عبد اللّه ... (الأغاني ج١٠ ص٥٦)، وتزوّجها بعد موت مصعب عمر بن عبيد اللّه فحمل إليها ألف ألف درهم ... (ص٥٨)

[٣٨] أفتى بعض الفقهاء ـ كما في العروة ـ باستحباب (التنوق في الطعام وتطييب الزاد والتوسعة

عدم الإحساس بالتناقض

في الكافي (٤٦٣/٤) بسند معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه فيما يتعلق بأعمال عرفة: « وتعوذ باللّه من الشيطان، فإن الشيطان لن يذهلك في موضع أحب إليه من أن يذهلك في ذلك الموضع، وإياك أن تشتغل بالنظر إلى الناس »

لا أظن عاقلا يشك في أن الترفُّه في المطعم والمسكن والمركب مما يلفت نظر الحاج ويُذهله عن ذكر اللّه، لا فقط إن لم يملكها بل حتى الذي يملكها، فمن الطبيعي أن لا تجتمع الاستعاذة منها مع الحث على فعلها، كما هو المفروض، ولكن قلّ من ينتبه إلى هذا التنافي الواضح، وليس هذا إلا لأن الإسلام لا يعامَل الآن دينا مؤلفا من مسائل متجانسة متعاضدة، بل إنما يُعامَل كطقوس لا يضرّها عدم ترابط مسائلها ....

من المعلوم أن الاستعاذة باللّه من الشيطان يعتبر من أبرز معالم الإيمان، وليست الاستعاذة أمراً خاصا بالحاج وبيوم عرفة، وإنما حثت عليها الرواية

فيه، لاسيما في سفر الحج) استنادا إلى بعض الروايات التي (الوسائل: ٣١٠/٨)، منها ما عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: كان علي بن الحسين إذا سافر إلى مكة للحجّ أو العمرة تزوّد من أطيب الزاد من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلى

ولكن في دلالة تلك الروايات على استحباب ما ذكر (مطلقا) كلام ليس مجاله هنا

ويقارن بين هذه الرواية وبين ما في الوسائل (٣٠٤/٨)، نقلا عن المحاسن بسنده (والسرائر) عن حسين بن أبي العلا أنه قال: خرجنا الى مكة ـ نيفا وعشرين رجلا ـ فكنت أذبح لهم في كل منزل شاة، فلما أردت أن أدخل على أبي عبد اللّه عليه السلام قال: يا حسين وتذل المؤمنين؟! قلت أعوذ باللّه من ذلك، فقال: بلغني أنك كنت تذبح لهم في كل منزل شاة. فقلت: ما أردت الا اللّه، قال: أما علمت أن منهم من يحب أن يفعل مثل فعالك فلا يبلغ مقدرته فتقاصر إليه نفسه؟ قلت: أستغفر اللّه، ولا أعود

في عرفة لأهميتها، والاستعاذة من الشيطان لا تتهيأ لأحد إلا بمعرفة الشيطان وأساليبه ومكائده وأعوانه وأهدافه، ثم رفضها والفرار منها، وإلا كانت كلمات يلغو بها اللسان لا تنفع إن لم تضرّ، يقول اللّه عزّ وجلّ (الأعراف: ٢٠٠- ٢٠٢): (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)

وعلى أيّ حال، إذا كان الحاج يعرف الشيطان والعقبات في سبيل اللّه وموانع توحيده، وكان يرغب في اجتناب الشيطان واجتياز تلك العقبات والموانع، وتعامل مع الحج كمحطة كبرى من محطات التزود بالتقوى، فهنالك صح أن يقول: « **اللَّهُمَّ إِلَيْكَ صَمَدْتُ وَ إِيَّاكَ اعْتَمَدْتُ وَوَجْهَكَ أَرَدْتُ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُبَارِكَ لِي فِي رِحْلَتِي، وَأَنْ تَجْعَلَنِي الْيَوْمَ مِمَّنْ تُبَاهِي بِهِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي...** » ، إذ أنه كان قد عرف وجه اللّه وتوَجّهَ إليه، وعرف وجه الشيطان وتولّى عنه، ومن وجه الشيطان أن يرى المرء جاهه وماله كرامة له وميزة للمباهاة على من يفتقدها، ومن وجه اللّه أن يرى ذلك ابتلاء وفتنة، فلو لم يغبط المحرومين المعانين، فلا يرى لنفسه - بما يتمتع به من مال وجاه - فضلاً عليهم، ثم يبدأ بالتصرف على أساس من هذه العقيدة والرؤية، فيحطم بجاهه كل جاه يفتتن المحرومين من عباد اللّه، ويجاهد بأمواله في سبيل اللّه والمستضعفين ليَكبُرُوا على المال والدنيا كلها، فبهذا يكون قد شكر الجاه والمال واستعملهما في سبيل اللّه وتحرير عباده وهدايتهم إلى اللّه وحده لا شريك له

وأما إذا كان الحاج يرى الجاه والمال وغيرهما من المتاع ميزة وخيرا فهو

من الطبيعي أن يتصرف بوحي من تلك الرؤية، وأن يتظاهر بميزته بطريقة أو بأخرى، حتى في حال إحرامه وهو يردد: « **لبيك .... لا شريك لك، إن الحمد والنعمة لك** » ، أو يطوف حول البيت، أو يقف في عرفة مثلاً، منتظرا انتهاء الإحرام وطقوسه ليعود إلى الذكر الأشدّ لميزاته وفتنته بسلوكه وأقواله كما كان يفعله الحاج الجاهلي من ذكر آبائه، بدلا من ذكر اللّه والقيام بتكبيره

الخلاصة:

الخلاصة: أن اللّه قد شرع الحج ليكون لوجهه وفي سبيله، ولكن الجاهليين وجهوه في اتجاه الشرك، ثم حرره رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وجعله للّه كما كان في عهد إبراهيم عليه السلام، فأصبح الحج وجهَ اللّه وحده وعبادته الخالصة كبقية شرائع الإسلام المتعاضدة والتي كان نتاجها الذين آمنوا باللّه وبرسوله واتبعوه فلم يستضعفهم شيء، فكانوا يستطيعون محاربة كسرى وقيصر، لأنهم بصلواتهم وتكبيراتهم وتلبياتهم كانوا قد توكلوا على اللّه بعد أن عرفوه، فكان حسبهم عزة وانتصاراً على أعداء اللّه والصادين عن سبيله، لا في الظاهر، حيث يتحكم فيه نظام اللّه الكوني العام، بل في داخل نفوسهم، فكانوا المنصورين في جهادهم سواء قَتَلوا أو قُتِلوا ما داموا جند اللّه يقاتلون في سبيل اللّه

وأما بعد وفاة النبي صلى اللّه عليه وآله، فقد انحرف الناس جهلا أو هوًى، وحرّفوا الإسلام، *فالآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت ...* كما في (نهج البلاغة: الخطبة ٩٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام، الذي جاهد ليُحيي الحق، ويرجع للدين سيادته كما كان في عهد النبي الأطيب الأطهر صلّى اللّه عليه وآله

إن العبادات عامة، والحج خاصة، ظلّت بشكل عام كما كانت، بحيث لا يكاد المرء يجد فرقا كبيراً بين المناسك المتداولة بين فرق المسلمين المختلفة لكنها فقدت مؤشراتها وانحرفت عن اتجاهها لتُمسي طقوسًا في اتجاه الدنيا وأغلالها وإماماتها الكافرة

وأخيرًا فعلى الحاج أن يعرف هذه الأمور وغيرها من معالم الإيمان

المتجسدة في الحج ثم يسعى في الحركة ضمنها وعلى ضوئها، فإذا فعل ذلك كان إماماً للمتقين وشفيعًا للمستضعفين بإسنادهم وتبصيرهم وتقويتهم والأخذ بأيديهم والعبور بهم عبر عقبات الطريق التي اصطنعها أهواء أناس قد ضلوا وأضلّوا جِبلاً كثيرا،

والحمد للّه رب العالمين

محمد علي باقري
١٠/ جمادى الأولى /١٤١٦

وكلمة لا بد منها

بســـم اللّه الرحمن الرحيم

ما كنت قد دونته في الصفحات السابقة ناقص ومبتور من دون ما أشير إليه الآن، وهو:

في الكافي (١٨/٢) عن أبي جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام أنه قال: « بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية

قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل لأنها مفتاحهن والوالي هو الدليل عليهن...

ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته، إن اللّه عز وجل يقول: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)، أما لو أن رجلا قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي اللّه فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على اللّه عز وجل حق في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان »

فما يؤهل الحاج ليكون (مؤمنا) ـ أي واجدا للأمن الحقيقي ـ ويهتدي إلى الحج وموقعه، ويأتي به على الوجه الذي يحقق ثواب اللّه هو معرفته لـ(ولاية) ولي اللّه ـ أي الإمام ـ بمعرفة أمره وهدفه ومعرفة طريقته لتحقيق ذلك، وبطاعته له

وإذا كان الحاج كذلك فهو، مضافا إلى ما في قلبه من الولاية للإمام عليه السلام، كان ناصرا لهم، عالما بما ينصرهم، منتظرا لقيام قائمهم، فكان كما

في الكافي (٣٩٢/١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه نظر إلى الناس يطوفون حول الكعبة فقال: « هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية. إنما أمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم ويعرضوا علينا نصرتهم » ...

محمد علي باقري

٢٠/ ذي الحجة الحرام /١٤٤٠